

البدیع فی بیان حکم التدرج فی التشريع

دكتور / علي بن حميد بن مسلم السناني

من ٢٠٣٧ إلى ٢٠٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد واهب العطاء جليل الثناء ذي العظمة والكبرياء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له من في الأرض ومن في السماء وما بينهما وما تحتهما الثرى . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفوة الأنبياء وإمام الأتقياء ، وقدوة الحنفاء ، صلى وسلم وبارك على آله الأصفياء وصحبه الأتقياء وعلى من سار على نهجهم واتبع سبيلهم إلى يوم اللقاء ، ، وبعد : فإن محاولة إظهار مزايا كتاب الله العزيز من أجل المهام التي يعنى بها الباحثون وتصرف لأجلها الأوقات والطاقات ، ذلك أن مائدة هذا الكتاب العزيز مائدة دسمة لا يشبع منها وتبقى شهية على مر العصور والأزمان ، بل كل يأخذ منها بطرف ، فهذا الكتاب العزيز هو أجل العلوم قدراً وأعلاها منزلاً وأرفعها مكاناً ، وما ذلك إلا لشرف موضوعه الذي هو كلام الله تعالى أشرف الكلام وأصدقه ، ولسمو غايته والغرض منه ، فالناس جميعاً على مر العصور والأزمان بحاجة ماسة إلى كشف مزايا هذا الكتاب المبارك وإلقاء الضوء على جوانب متعددة منه ، فنور الوحي يضيء للأمة طريقها ويعالج مشاكلها ويمهد لكمالها العاجل والآجل ، وإن من أهم ما عنى به الباحثون واهتم به المختصون وبينه العارفون هو هذا التشريع المبارك وبيان بعض من الجوانب الاعجازية للقرآن الكريم ... ، لذلك أحببت أن أكتب في موضوع " من حكم التدرج التشريعي " مع ذكر بعض النماذج للتدرج في أحكام جاء بها هذا الكتاب العزيز ، وذلك لما يلي :-

سبب اختيار الموضوع :

١ - أن بحث هذا الموضوع يعني بحث جانب من الجوانب الاعجازية للقرآن الكريم ، ومن المعلوم أن هذا الكتاب المبارك كما هو معجز نظاماً وتركيباً وبيانا فهو كذلك معجز تشريعاً ، فبحث هذه الموضوع يعني إبراز جانب من الجوانب المهمة لهذا

الكتاب العزيز ، ثم هو طريق للتبحر في علوم القرآن الكريم ، وهذا غاية نبيلة ومهمة جليلة من حصلها فقد حصل خيرا كثيرا إذا أخلص النية لله تعالى ،

٢- بيان سماحة القرآن الكريم في عرض تشريعاته المباركة ومراعاته لقدرة المكلفين ومدى استيعابهم وطاقتهم ، ومراعاة مآلفوه وتعودوا عليه ، وكيف أنه قد اقتلع ماتعودوه وألفوه بطريقة سنينة تجمع بين الترغيب والترهيب أو بين حسن التخلية وجمال التحلية كما سيأتي ، وكيف يستفاد من هذه الطريقة أعني السياسة المتدرجة في الاقتلاع التي جاء بها هذا الكتاب المبارك في مجالات عديدة ومنها حقل الدعوة إلى الله تعالى ، أوفي التعامل مع كل من ألف أمراً وتعود عليه حتى صعب انفكاكه منه وإقلاعه عنه ، كما في حال حديثي العهد بالإسلام أو مدمني المخدرات أو بعض العادات السيئة كالتدخين وسماع الموسيقى أو من تعاملوا في بعض المحرمات وعدوها ضرورة في هذا الزمن كالربا، أو مع من أشربوا الفتن ومالوا إلى البدع من أهل القبلة وغير ذلك ،

٣- المساهمة في إبراز جانب من جوانب التشريع المبارك، وكيف أن الله تعالى ربي عباده المؤمنين من خلاله أجمل تربية وبنى في نفوسهم محبة الخير وبغض الشر بطريقة سنينة ، حتى تغير واقعهم الأليم وما تخلله من جاهلية مطبقة وضلالات وأوهام مخزية وعادات سيئة مستحكمة وخرافات وأساطير باطلة ماأنزل الله بها من سلطان وبفضل الله تعالى يتغير هذا الواقع إلى واقع مشرق كريم بإسلوب حكيم متقن جمع بين حسن التخلية وجمال التحلية، أي التمهيد لكمال تحليهم واتصافهم بالأخلاق الفاضلة السامية بعد أن مهد لكمال تخليهم وابتعادهم وانفكاكهم من الأخلاق السيئة المرذولة منتهجاً سياسة التدرج في الأمر والنهي حتى نالوا عز الدنيا وسعادة الآخرة ، بإذن الله تعالى ،

٤- المساهمة في إثبات وتأكيد أن هذا التشريع المبارك الذي تدرج مع الناس حتى رباهم أحسن تربية وانتقل بهم إلى بر الأمان وغير مجرى حياتهم إلى ما هو خير لهم في دنياهم وأخراهم رغم ماتأصل في نفوسهم من عادات سيئة وماألفوه من بدع

وخرافات رغم قدم عهدهم بخبر السماء وانداس الكثير من الديانات السماوية فهو أعني هذا التشريع المبارك أقرر على تغيير واقع الناس اليوم إلى واقع كريم طيب ، إن هم أخذوا بهذا المنهج المبارك وطبقوه ،

٥- الرد على المشككين في صلاحية التشريع الإسلامي لكل زمان ومكان ، ، فمن المعلوم أن صوت التشكيك في صلاحية تطبيق الشريعة الإسلامية ومقولة عدم تناسب الأحكام الشرعية لهذا العصر فهذا أمر نسمعه بين الحين والآخر ، خاصة مع قلّة العلم وانتشار البدع وكثرة الانقسامات والاختلافات ، ومحاولة قلب الحقائق وتصوير الشر بصورة الخيّر كما صورت الديمقراطية التي يسعى لتطبيقها الغرب والتي هي في الحقيقة إباحية بهيمية صورت بأنها جنة الدنيا وأنها البديل للانغلاق والتشدد والكبت ، والعكس كما صورت الحدود التي شرعها أحكم الحاكمين والتي هي صمام أمان سلامة المجتمع ، فإن طبقت أمن الناس على دمانهم وأموالهم وأعراضهم ومع ذلك صورت على أنها وحشية .. لذلك كان إقناع الناس بصلاحية هذه الشريعة ومزاومتها لأحوال الناس وانسجامها مع الفطر السليمة ولفت الانتظار إلى كنوزها ونقاء مصدرها وجميل مضمونها وجوهرها وأنها صالحة لكل زمان ومكان وتسع كل أحد مهما كان جنسه أو لونه .. فهذه غاية نبيلة ومقصد شريف حري بأن تشدّ لها الهمم وتسود لأجلها الأوراق وتصرف لها الطاقات والأوقات ، لهذا ولغيره أحببت أن أكتب في هذا الموضوع باختصار ، ولاشك أن الإمام بجوانب هذا الموضوع بتوسع يحتاج إلى عدة رسائل ، لكنني سأختصر بقدر مايسمح به المقام ، على أن هذا الموضوع قد بحثت جوانب منه بشكل متفرق لدى العديد من الباحثين وخاصة فيما يتعلق في المقارنة بين التشريع الوضعي والتشريع الإلهي في مكافحة الجريمة أو في مجال بيان مميزات التشريع الإسلامي جملة ، غير أنه لايزال بحاجة إلى إبراز جوانب منه بشكل أوسع ، هذا وقد نشأت فكرة هذا الموضوع من خلال إشرافي على بحث تقدم به أحد الطلاب بكلية القرآن الكريم بعنوان " التدرج التشريعي في القرآن الكريم" في المرحلة الجامعية عام ١٤١٦ ، فقد وقفت على شيء

من حجم المادة العلمية ، فرأيت أن أبرز جوانب من الموضوع لتناولها بشيء من التفصيل مع الاقتصار على بعض النماذج التي جاء بها القرآن الكريم متدرجة ، رجاء أن يكون في ذلك إضافة نافعة تثري المكتبة الإسلامية، وتخدم روادها بإذن الله ، وقد رغبت أن يكون عنوان هذا البحث المصغر:

البديع في بيان حكم التدرج في التشريع

والله ولي التوفيق ،

الباحث/ علي بن حميد بن مسلم السناني

خطة البحث:

-: يتكون البحث من مقدمة وفصلين وخاتمة
المقدمة: وتتضمن أهمية الموضوع وسبب اختياره وخطة البحث ومنهج كتابة
البحث:،

الفصل الأول: التدرج التشريعي حكم وأسرار: وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: تعريف التدرج التشريعي،

انمبحث الثاني: التدرج والأحكام وتحت مطالب:

الأول : أحكام جاءت ملزمة بدون تدرج ،

الثاني: أحكام متدرجة وتحت ما يلي :

* التدرج في أحكام متعددة

* التدرج في الحكم الواحد وهو على أنواع:

١/ ماكان فيه التدرج من الأثقل إلى الأخف ، أمثلته،

٢/ ماكان فيه التدرج من الأخف إلى الأثقل ،

المبحث الثالث : تنزلات القرآن الكريم وبعض حكم تنجييمه ؛وتحت مطالب:

الأول:تنزلات القرآن الكريم ، وتحت :-

التنزل الأول،

التنزل الثاني ،

التنزل الثالث ،

المطلب الثاني: حكم وأسرار تنجييم القرآن الكريم وتحت:

١/تثبيت فؤاد النبي ﷺ

٢/مسايرة الحوادث،

٣/ التدرج في تربية الأمة الناشئة علما وعملا

٤/الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم وأنه كلام الله وحده وأنه لا يمكن أن يكون كلام

محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه ،

الفصل الثاني: نماذج للتدرج في أحكام القرآن الكريم وفيه المباحث التالية:
المبحث الأول: نماذج مما جاء بالتدرج في الاعتقادات: التدرج في تقرير البعث،
وتحتة مطالب:

١/ تمهيد،

٢/ مسالك القرآن المكّي في تقرير وبناء العقيدة،

* المسلك الأول * المسلك الثاني، * المسلك الثالث. * المسلك الرابع * المسلك الخامس،

٣ / التدرج في إقناع منكري حقيقة البعث وتحتة مايلي :

* الدعوة للإيمان والعمل الصالح ، في سبيل الاستعداد للقاء الله .

* النظر في مخلوقات الله تعالى وسائر آياته يقود إلى توحيده تعالى،

* لفت الأنظار إلى عظيم منته تعالى على عباده ،

* التنبيه إلى بدء خلق الإنسان ومحدودية أجله ،

* التنبيه إلى أن النشأة الثانية أسهل عليه تعالى من الأولى

المبحث الثاني: نماذج للتدرج في المعاملات: التدرج في تحريم الربا. وتحتة: -

١/ تمهيد ٢/ المرحلة الأولى من مراحل التأسيس لتحريم الربا: ذم الربا ومدح الزكاة

٣ / المرحلة الثانية : النهي عن صورة معينة كانوا يتعاملون بها وهي المضاعفة،

٤/ المرحلة الرابعة: استقرار الحكم الشرعي القطعي بتحريم الربا ، قليلة

وكثيرة..

المبحث الثالث:

التدرج في الآداب الاجتماعية،: التدرج في تحريم الخمر، وتحتة ما يلي :

* تمهيد.

* المرحلة الأولى من مراحل التأسيس لتحريم الخمر :

التفجير من الخمر بطريق الإلماحة غير المباشرة ،

* المرحلة الثانية :

التنبيه على أن ضرر الخمر أكبر بكثير مما قد يحصل من النفع.

* المرحلة الثالثة:

تحريم الخمر تحريماً جزئياً في أوقات معينة ،

* المرحلة الرابعة:

التحريم القطعي للخمر ،

المبحث الرابع: التدرج في العبادات: التدرج في مشروعية الزكاة: وتحت مايلي :

١/تمهيد

٢/ضوابط وتوجيهات لابد منها فيما يتعلق بالمال وتحت:

* التأكيد على أن المال مال الله وهو ودیعة في يد العبد

*العطاء لايزيد المال إلا نماء وبركة،

* الخلف الحسن الذي أعده الله للمنفق ،

*سوء عاقبة بطر النعم وصرفها فيما لايجل ،

*الحكمة الإلهية في الإعطاء والمنع وأن الله تعالى أوجب في المال حقوقاً للفقراء

والمساكين شكراً لله تعالى،

*الأمر بالإتفاق على وجه الإلزام

* التفصيل في قدر المنفق وجهة الاستحقاق،

وهذه الخطة قابلة للتعديل حسب ما يقتضيه سير البحث ، على أن عنوان البحث/

البديع في بيان حكم التدرج في التشريع

إعداد/ علي بن حميد بن مسلم السناني

منهج كتابة البحث:

— قد سرت مع آيات الكتاب العزيز في بيان التدرج ، والمعتبر عندي في المقام الأول وجه الدلالة من الآية في الموضع الذي أردت إيراد الآية فيه، دون استقصاء وبيان المكي من المدني لأنه كما أشرت في موضعه لآمانع أن تكون السورة مكية

وفیها آیه أو آیات مدنیة أو العکس ، وقد سرت مع الآیات الکریمة فی بیان التدرج وقد أذكر شیئاً من السنة المطهرة استطراداً وهو قليل ،

— لما رأیت أن الموضوع ربما کثر طرقه فی کثیر من الکتب بشكل متفرق تارة تحت بیان أوجه الفرق بین التشريع السماوي والتشريع الوضعي وتارة تحت بیان مميزات التشريع الإسلامي عمدت إلى إلقاء الضوء على السیاسة التشريعية المباركة فی بناء الحق وهدم الباطل فهذا الموضوع هو لب البحث إضافة إلى الوقوف مع النماذج التي ذکرتها،

— لم أکتف بسرد الآیات الدالة على الموضوع كما فعل بعض الباحثين وإنما ذكرت خلاصة لما ورد عن المفسرين فی تفسیر الآیه بحسب ما یقتضيه المقام، مع إیراد بعض الإيضاحات والفوائد التي تثری الموضوع ، .

— ماكان تفسیراً للآیه وبياناً لها ذکرته فی المتن مع توثیق أقوال المفسرين من الکتب المعتمدة ، مع الإشارة إلى ما نقلته بنصه وما نقلته بالمعنى ، ، والفوائد والتنبيهات التي رأيتها تثری الموضوع وتفيد القارئ جعلتها فی الهامش .

أحياناً أجمع المفسرين فی الخبر عنهم نحو وهو ما ذكره المفسرون ، والأكثر أني أنقل كلام المفسر بعينه مع الإحالة إلى موضعه

عزوت الآيات إلى صورها بذكر رقم الآیه واسم السورة،

خرجت الأحاديث الآثار الواردة فی البحث تخريجاً علمياً بما فی ذلك الأحاديث والآثار التي أوردها فی الهامش.

- تذييل البحث بخاتمة فيها بيان أهم النتائج التي توصلت إليها،

تذييل البحث أيضاً بفهارس علمیه تقرب محتواه ، —

والله الموفق والهادي على سواء السبيل،

الباحث / علي بن حميد بن مسلم السناني

الفصل الأول: التدرج التشريعي حكم وأسرار

وفيه المباحث التالية:-

المبحث الأول: تعريف التدرج التشريعي في اللغة والاصطلاح:

التدرج : تفعل من الدرجة ، وتدرج إلى الشيء تقدم إليه شيئاً فشيئاً ، ومنه درج الصبي ، أي أخذ في الحركة ومشى قليلاً أول مايمشي، وأدرج الكتاب طواه شيئاً بعد شيء ، واستدرجه بمعنى : أدناه منه على التدرج ، قال تعالى " والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون "(١)

ومعنى : سنستدرجهم: سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم وهم لا يعلمون ، أو سنأخذهم بالعذاب من طريق لا يعلمونها "(٢)

معنى التدرج اصطلاحاً:

هو التشريع بحكم من أحكام الشريعة شيئاً فشيئاً ليكون المتقدم منها ممهداً لقبول المتأخر ،

أما معنى التشريع في اللغة :

هو مصدر شرع يشرع تشريعاً بمعنى: سن،

والشريعة في اللغة : شريعة الماء، أي مورد الظامنة ومنه قول العرب : شرعت الإبل إذا وردت شريعة الماء لتشرب ، وتأتي الشريعة بمعنى الطريقة المستقيمة ومنه قوله تعالى " ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون "(٣)

(١)الأعراف (١٨٢)

(٢)انظر لسان العرب (درج) ومختار الصحاح ص ٢٠٢ وانظر تفسير الطبري ٢٧/١٢

٠ تفسير الشوكاني ٢٨٥/٢ وانظر لسان العرب (شرع) و المعجم الوسيط ١٥٧/١ ومختار الصحاح (شرع)

(٣) الجاثية

معنى الشريعة اصطلاحاً :

هي اسم للأحكام الجزئية التي تهذب المكلف في سائر أموره معاشاً ومعاداً، ^(١)

المبحث الثاني:

التدرج والأحكام / وتحت مطالب:

الناظر في جملة الأحكام التي جاء بها القرآن الكريم سواء في الاعتقادات أو في الأحكام أوفي المعاملات ، أو في غير ذلك يجد أنها على ضربين:

١ / أحكام جاءت ملزمة بدون تدرج :- ومنها: تحريم الشرك قال تعالى " وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . " ^(٢)

ومنها : الزنا، قال تعالى " ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً " ^(٣)

ومنها تحريم نكاح منكوحات الآباء قال تعالى " ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً " ^(٤) ويندرج تحت هذا النوع

كل ما جاء النهي عنه بصيغة الجزم ولم يسبق له تمهيد ، لكن لتعلم أن الأحكام التي جاءت ملزمة بدون تدرج إنما روعي فيها حال المكلفين فالله تعالى إنما يعلم الوقت المناسب لنزول تلك الأحكام بشكل ملزم ، فمنها ما يناسبه التقدم ومنها ما يناسبه التأخر المهم أن الله تعالى بمقتضى حكمته يعلم متى تكون النفوس مهياً لقبول تلك الأحكام ، ولهذا تقول عائشة رضي الله تعالى عنها لرجل من أهل العراق (: إنما نزل أول منازل من القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع

(١) انظر الكليات للكفوي فصل الشين،

(٢) (لقمان ١٣)

(٣) الإسراء (٣٤)

(٤) (النساء ٢٢)

الخمر أبداً ، ولو نزل : لاتزنوا قالوا : لا ندع الزنا^(١) قال القفال :^(٢) لأن ما القود وكان انتفاعهم به كثيراً لو منعهم منه دفعة واحدة لشق عليهم، فجاء التدرج رفقا بهم ومراعاة لأحوالهم ،^(٣) إذا الأمور الشاقة على النفس لابد أن تسبق بالأرضية المناسبة للقبول،

٢/ أحكام جاءت متدرجة، وهي نوعان: النوع الأول: التدرج في أحكام مختلفة: ومثال هذا النوع: التدرج في تشريع الدعائم الخمس، التي بني عليها الإسلام فإن الله تعالى شرع منها أولاً الشهادتين ثم الصلاة ثم الزكاة ثم صوم رمضان ثم الحج إلى بيت الله الحرام،^(٤)

النوع الثاني: التدرج في الحكم الواحد: وهو على أنواع، النوع الأول وهو: ماكان فيه التدرج من الأثقل إلى الأخف ، ومنه : أن الأكل والشرب والجماع كان مقيداً في بداية مشروعية الصيام مابينه وبين أن يصلي العتمة أو يرقد فإذا صلى العتمة أو رقد منع من ذلك إلى مثلها، ثم جاءت الرخصة في ذلك وأبيح الأكل والشرب والجماع إلى طلوع الفجر، قال تعالى " أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ..."^(٥)، ومنه عدة المتوفى عنها زوجها كانت عاما كاملاً، قال

(١) (أخرجه البخاري في باب فضائل القرآن باب (٦) ٦٥٥/٨ ح(٤٩٩٣))

(٢) العلامة الفقيه الأصولي أبو بكر محمد بن علي الشاشي القفال انتشر عنه فقه الشافعي في بلاد ماوراء النهر من مصنفاته التفسير الكبير ودلائل النبوة ومحاسن الشريعة وأدب القضاء وشرح الرسالة وغيرها قالوا وتفسيره طيب لولا نصرد الاعتزال ت ٣٦٥ انظر سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٨٣ وطبقات المفسرين للداودي ١٩٨/٢ ..

(٣) انظر فتوح الغيب ص/ ٣٧٤ رسالة ماجستير من إعداد الباحث. بتصرف ، ، ويأتي له مزيد بيان لأنه جوهر البحث

(٤) انظر بشيء من التفصيل التشريع الإسلامي وحكمته للعلامة الشنقيطي رحمه الله ص ١١ وما بعدها رسالة من مطبوعات الجامعة الإسلامية .

(٥) البقرة(١٧٨)

تعالى " والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا متاعا إلى الحول غير إخراج... " (١)، ثم خففت مايلزم المتوفى عنها زوجها من عام إلى أربعة أشهر وعشرا، كما قال تعالى " والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا " (*)
 الثاني :- ماكان فيه التدرج من الأخف إلى الأثقل وهو الأكثر ، وهو ماسيتناوله البحث بإذن الله مع ذكر بعض النماذج بشيء من التفصيل بإذن الله ،

المبحث الثالث:-تنزلات القرآن الكريم وبعض حكم تنجييمه :

هذه المسألة مما أتى عليها البحث كثيرا من قبل المتأخرين الذين ألفوا في علوم القرآن كما تجده في مناهل العرفان وفي المدخل وفي غيرهما من كتب المتأخرين (٢) مما أرى نقله كله يثقل كاهل البحث، ولكن سأكتفي ببعض الإشارات بما يناسب المقام فأقول مستعينا بالله تعالى : تنزلات القرآن الكريم
 ذكر أهل العلم أن للقرآن ثلاث تنزلات:- ، --

التنزل الأول:

التنزل إلى اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى (بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ) (٣)
 التنزل الثاني : كان هذا التنزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا . كما قال تعالى (إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين) (٤) وكما قال تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) (٥) وكان هذا النزول جملة واحدة على الراجح ،

التنزل الثالث : من السماء الدنيا إلى نبينا محمد ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام يهبط به على قلب النبي ﷺ كما في قوله تعالى " نزل به الروح

(١) البقرة (٢٤٠)

(٢) راجع مناهل العرفان للزر قاني ٤٥/١ وما بعدها، والمدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي

شهبه/ص-٦٩-٨٣

(٣) البروج (٢١ - ٢٢)

(٤) الدخان (٣)

(٥) القدر (١)

الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين " ^(١) وهذا التنزل هو أطول التنزلات، وإذا استمر من مبعثه صلى الله عليه وسلم وانتهى بقرب انتهاء حياته الشريفة ، أي تنزلاً مفرقاً على مدى ما يقرب من ٢٣ عاماً على أرجح الأقوال ، قال تعالى " وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً " ^(٢) وقال تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً) ^(٣) ، ،

(١) الشعراء ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥

(٢) الإسراء (١٠٦)

(٣) الفرقان (٣٢ - ٣٣)

من حكم وأسرار تنجيم القرآن الكريم

قد ذكر العلماء لهذا التنجيم بعض الأسرار والحكم ومنها:-

١/ تثبيت فؤاد النبي ﷺ من وجوه :

- تيسير حفظ هذا الوحي وفهمه ومعرفة أحكامه وحكمه،
- تحدي خصومه في كل مرة أن يأتوا بمثل ما أتى به فظهر عجزهم
- تأييد حقه الذي جاء به صلى الله عليه وسلم ودحض باطل عدوه،
- تعهد الله تعالى لنبيه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يهون عليه هذه الشدائد.

٢/ التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعملاً من خلال:-

- تيسير حفظ القرآن وفهمه على الأمة،
- التمهيد لكمال تخليهم عن عقائدهم الباطلة وعباداتهم الفاسدة وعاداتهم المردولة
- والتمهيد لكمال تحليهم بالعقائد الحقة والعبادات الصحيحة وذلك بأن يراضوا على هذا التخلي والتحلي شيئاً فشيئاً بهذه السياسة الرشيد ، ولهذا بدأ الإسلام بفطامهم عن الشرك والإباحة ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء من جراء مافتح عيونهم عليه من أدلة التوحيد وإبراهيم البعث وحجج الحساب ، وهذا ما سيأتي له مزيد بيان لأنه من لب الموضوع ، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات.. وفي السياق فقد زجرهم أولاً عن الكبائر ثم نهاهم عن الصغائر بشيء من الرفق ، وتدرج بهم في تحريم ماكان مستأصلاً فيهم كالخمر على ماسيأتي ، وكان الإسلام بهذه السياسة أبعد نظراً وأنجح تشريعاً في حين أفلست الأمم المتحضرة في تحقيق مرادها بمنع الشعوب عن الخمر بعيداً عن منهج الوحي ،

الحكمة الثالثة / مسامرة الحوادث في تجددتها وتفرقها فكلما جد جديد نزل من القرآن مايناسبه وتحتة مايلى :١/ إجابة السائلين على أسئلتهم التي يوجهونها إلى رسول

٢/ مجارات الأفضیة والوقائع فی حینها ، ٣/ لفت أنظار المسلمین إلى تصحیح أغلاطهم التي یخطئون بها ، ٤/ كشف حال المنافقین ودسائسهم ^(١)

الحكمة الرابعة /: الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم وأنه كلام الباری سبحانه لا يمكن أن يكون من كلام البشر : لقد تقرر أن كل نبی إنما تكون معجزته من جنس ما برع به قومه ، ولقد كان العرب فی غاية من البلاغة والفصاحة والبيان ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بأية واحدة ولو اجتمعوا لذلك ، ومراحل التحدي أربعة: بسورة ثم بعشر سور ثم بحديث مثل ما جاء به محمد ﷺ ثم بالقرآن كاملاً كما قال تعالى " قل لأن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً " ^(٢) فهذا العجز مع كمال الأهلية ساق العقلاء منهم إلى أن يؤمنوا بأن هذا القرآن كلام الله ، وهو كذلك فإنك تقرأه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم غاية الأحكام " لا يأتیه الباطل من بین يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " ^{(٣) (٤)} :

– تثبیت فؤاد النبى ﷺ المؤمنین وتسليحهم بعزيمة الصبر والیقین –

(١) انظر مناهل العرفان ٥٩/١ وما بعدها

(٢) الإسراء (٨٨)

(٣) انظر مناهل العرفان ٥٩/١ وما بعدها

(٤) الإسراء (٨٨)

الفصل الثاني

نماذج من الأحكام التي جاءت متدرجة في القرآن الكريم وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول:

نماذج مما شرع بالتدرج في الاعتقادات: التدرج مع الكفار في تقرير البعث: تمهيد: أعلم رحمك الله أن قضية البعث هي لب الصراع بين الرسل وأقوامهم شأنها في ذلك شأن أفراد الله تعالى بالعبادة وحده دون سواه وغير ذلك من القضايا العقدية الهامة ، فما من نبي إلا وقد جادل قومه وأبان لهم الكثير من الأدلة على أن البعث حق لامرية فيه ، ورغم بالغ البينات التي أظهرها الله تعالى في كتابه أو على أيدي رسله تأييداً لأنبيائه الكرام وإقناعاً لمن أراد الحقيقة إلا إن المعارضة مازالت قوية ، ومن هنا انتهج القرآن الكريم سياسة التدرج مع المعارضين حيال هذه القضية ، وقبل ذلك يحسن إلقاء الضوء على بعض من مسالك القرآن المكي في بناء العقيدة ، ذلك أن هذه القضية أعني قضية العقيدة شغلت حيزاً كبيراً في القرآن الذي نزل في مكة أي قبل الهجرة بخلاف القرآن الذي نزل بالمدينة فإنه عنى بالأحكام والشأن الاجتماعي ونحو ذلك

المبحث الثاني: مسالك القرآن المكي في بناء العقيدة^(١):

المسلك الأول:

إقامة الأدلة والبراهين على انفراده تعالى بالألوهية من خلال لفت الأنظار إلى عظيم خلق الله تعالى وبديع صنعه، وكثيراً ما يعبر المفسرون عن هذه بقولهم: محاجة المشركين بالاستدلال بآثار صنعه تبارك وتعالى، والإقناع بأن هذا الإتيان البديع لابد له من صانع مبدع ، فقد تقرر أن جودة الصنع تدل على جودة الصانع ، وفي هذا العديد من الآيات ، قال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار.....)^(٢) ، وأنت ترى أن هذه الآية في سورة مدنية، لكن قال كل أهل العلم لامانع أن تكون السورة مدنية توجد فيها آية أو آيات مكية كما هنا أو العكس ، قال الطبري رحمه الله تعالى في أحد وجهي ورود هذه الآية الكريمة قال : .. يعلم تعالى المشركين في هذه الآية وما أشبهها أن لهم في خلق السموات والأرض وسائر مآذرك من ذلك آية بينة على وحدانية الله تعالى وأنه لا شريك له في ملكه لمن عقل وتدبر ذلك بفهم صحيح .^(٣) ، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: .. ثم ذكر الدليل على تفرد تعالى بالألوهية بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بين ذلك مما ذرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته تعالى ،^(٤) وفي السياق يقول تعالى (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)^(٥) قال الشوكاني رحمه الله تعالى : ثم وصف نفسه بأنه تعالى الذي خلق السموات والأرض إخباراً عن قدرته الكاملة الموجبة لاستحقاقه جميع المحامد ، فإن من اخترع ذلك

(١) وقد رأيت الشيخ الدكتور سيد طنطاوي قد أتى على طرف من الموضوع في بداية تفسير الأنعام له

(٢) البقرة (١٦٤)

(٣) انظر تفسير الطبري ٦١/٢

(٤) انظر تفسير ابن كثير ص ١٣٨

(٥) الأنعام ١

وأوجده هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد،^(١) وقال تعالى (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنوا * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)،^(٢) انظر كيف أنه تعالى ساق العديد من الآيات العظيمة التي توجب الإيمان وتزيل الشك لمن كان مريداً للحق ناظراً بإنصاف، وضمن تعالى هذا التعداد لهذه الآيات العجيبة التنبيه على أن الغاية من تصريح هذه الآيات تقوية الإيمان بلقاء الله تعالى (لعلكم بلقاء ربكم توقنوا) كما قال قتادة : إن الله إنما أنزل كتابه وبعث رسله ليؤمن بوعده ويستيقن بلاقائه^(٣)،
وقال ابن عطية : وهذا إخبار منه تعالى أنه يفصل الآيات لعل الكفرة يوقنوا بالبعث^(٤)، وقال الشوكاني: لعل الممتريين عند مشاهدة هذه الآيات يوقنوا بلقاء ربه لا يشكون فيه ولا يمترون،^(٥) وقال الألوسي: وهذه دليل على وجود الصانع الحكيم تعالى شأنه^(٦) (وقال السعدي : إن كثرة الآيات وبيانها ووضوحها من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية خصوصاً في العقائد الكبار كالبعث والنشور والإخراج من القبور^(٧)

(١) تفسير الشوكاني ١٠٢/٢

(٢) الرعد (٣/٢)

(٣) أنظر في الدر المنثور عند هذه الآية

(٤) تفسير ابن عطية ٦/١٠

(٥) انظر تفسير الشوكاني عند هذه الآية من سورة الرعد

(٦) انظر تفسير الألوسي عند هذه الآية من سورة الرعد

(٧) انظر تفسير السعدي عند هذه الآية

المسلك الثاني:

لفت الأنظار إلى سابغ فضله وعظيم إحسانه تعالى على عباده كما قال تعالى : (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وانتم تعلمون) ^(١)، وقال تعالى (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وعاءتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصونها إن الإنسان لظلوم كفار) ^(٢) وغير ذلك من الآيات في هذا المعنى ،

المسلك الثالث:

حشد الأدلة والبراهين على أن البعث حق لامية فيه وأن الله تعالى قادر على بعث الناس بعد موتهم (وهي قضيتنا ومحور البحث في هذا المبحث)

المسلك الرابع:

ضرب الأمثلة بالأمم السابقة المكذبة وماحل بها من العذاب والنكال ، وأن سنته تعالى بالمكذبين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل قال تعالى " وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" ^(٣) فكما أهلك الأولين فهو تعالى قادر على إهلاك من بعدهم ، قال تعالى (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لهم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) ^(٤)

(١) البقرة (٢٢)

(٢) إبراهيم (٣٢ / ٣٣ / ٣٤)

(٣) محمد (٣٨)

(٤) الأنعام (٦)

قال المفسرون : هذه الآية وأمثالها مما فيه التنبيه على عظيم قدرة الله تعالى مسوقة في مقام الوعظ والتذكير للمعرضين من كفار قريش إذ أخبرهم تعالى بحال من سبقهم من الأمم المكذبة التي كانت أقوى منهم ومع ذلك لما أراد الله تعالى عقابهم لم تغن عنهم قوتهم ولا كثرة عددهم وعتادهم من الله شيئاً

فليحذر أولئك إن كانوا أرباب عقول ، فإنه تعالى كما أهلك من سبقهم فهو قادر على إهلاكهم من باب أولى سيما وأن وزرهم أعظم ممن سبقهم فقد كذبوا رسولا هو أكرم على الله تعالى من سائر الرسل السابقين وهم أعنى كفار قريش أضعف ممن سبقهم عدداً وعتاداً ... ، وقال تعالى "(قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين)"^(١)

المسلك الخامس:

حشد الأدلة والبراهين على صدق النبي محمد ﷺ وأنه لم يعرف عنه إلا الصدق كما قال تعالى " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ، ، "^(٢) وقال " وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى .. "^(٣) وكما قال تعالى " ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين "^(٤) إذا هو قد عرف عنه الصدق وأراد الله تعالى أن يكون كذلك قدراً كما قد عرف عنه ذلك طبعاً وحقيقة مقررة معروفة ،

المسلك السادس:

حشد الأدلة والبراهين على ضعف الآلة التي تعبد من دون الله وأنها ضعيفة مهينة لا تجلب خيراً ولا تدفع ضرراً قال تعالى " فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار

(١) الأنعام (٢٢)

(٢) العنكبوت (٤٨)

(٣) النجم (٣.٤)

(٤) الحاقة (٤٤، ٤٥)

التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين" (١) وقد فسرت الحجارة هنا بالأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله ويتقربون بها إلي قالوا وهذا آلم للعابدين وأوقع للحسرة في قلوبهم حينما تقترب بهم أصنامهم التي كانوا ينافحون عنها ويتقربون إليها هاهي معهم في نار جهنم كما قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) (٢)

قال في البحر : وقيل الضمير أي في (نحشرهم) عائد على المشركين وأصنامهم ، ألا ترى إلى قوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله) (٣) (٤) ، وقال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى (وما كانوا يعبدون من دون الله) قال أي من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم (٥) ، وقال تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) (٦) وقال تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) (٧) ،

قال ابن كثير رحمه الله : معناه: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها أيها المشركون من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، ومادخلوها (وكل فيها خالدون) أي العابدون ومعبوداتهم في النار خالدون (٨)

ومنهم من فسر الحجارة أي التي في قوله تعالى (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) بأنها حجارة الكبريت السوداء المنتنة التي هي أشد أنواع الحجر حرارة

(١) البقرة (٢٤)

(٢) الأنعام (٢٢)

(٣) الصافات (٢٢)

(٤) البحر المحيط (٤/٤٦٤)

(٥) تفسير ابن كثير ص ١١٢٥

(٦) النحل (١٧)

(٧) الأنبياء (٩٨)

(٨) تفسير ابن كثير ص ٨٨٣

قالوا وهذا أشد في تسعير جهنم، وهو مانقله ابن كثير رحمه الله عن ابن مسعود ومجاهد وابن جريج ^(١) ،

هذا بعض مالفت الله تعالى الأنظار إليه في سبيل تقرير عقيدة البعث ، ومعلوم أن الإيمان بهذه الجزئيات فرع عن الإيمان بالقرآن بأكمله بأنه منزل من عند الله تعالى وأنه من كلامه وليس من كلام البشر، وهذه القضية أيضا طال فيها النزاع بين الرسول ﷺ والمعاندين، وكما ذكر تعالى من الأدلة على أن هذه القرآن من كلامه ، كما قال تعالى (وماكان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) ^(٢) وإلى غير ذلك من الآيات التي دفعت منصفهم إلى الاعتراف بأن هذا القرآن كلام الله ،

ولما نافح المعرضون عن هذه العقيدة وبالغوا في إنكار البعث وتأصل ذلك في نفوسهم سلك معهم القرآن مسلك التدرج لإفناعهم بحقيقة البعث وفق الآتي:-

١/ الدعوة للإيمان والعمل الصالح :-

- قال تعالى (ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم ..) ^(٣)
- وقال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ..) ^(٤)

وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) ^(٥)

(١) انظر تفسير ابن كثير ص ٥٢ وهو مال ما إليه رحمه الله

(٢) يونس (٣٧)

(٣) النساء (١٧٠)

(٤) النحل (٩٧)

(٥) الحج ٧٧

٢ / إقامة البراهين والأدلة على وحدانية الله سبحانه وتعالى من خلال النظر في مخلوقاته وسائر آياته وقد أشير إلى شيء من ذلك فيما تقدم :

- قال تعالى (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ^(١)

- وقال تعالى (قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إنني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين) ^(٢)

- وقال تعالى (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) ^(٣)

٣ / لفت الأنظار إلى عظيم منة الله تعالى على عباده : بأن أوجد لهم من العدم وصورهم بأحسن صورة وبأحسن تقويم ، - قال تعالى (وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) ^(٤)، وقال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ^(٥) وقال تعالى " خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير) ^(٦) وقال تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) ^(٧)

ففي هذا كفاية للإقناع بأن مولي النعم ومسديها حقيق بأن يشكر ويفرد بالعبادة وحده

(١) الأنعام ١

(٢) الأنعام ٢

(٣) ياسين ٨١

(٤) البقرة ٢٨

(٥) النحل ٧٨

(٦) التغابن ٣

(٧) التين ٤

٤ / ثم لفت الأنظار إلى أن الذي أوجد الإنسان من العدم وصوره بأحسن صورة إنما اقتضت حكمته تعالى بأن أجل للإنسان أجلاً محدداً في هذه الحياة الدنيا ثم مآله الرجوع إلى الله لا محالة فمنه المبتدأ وإليه المنتهى ، كما قال تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) ^(١) وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) ^(٢) ، وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) ^(٣)

٥ / بيان أن النشأة الثانية أسهل على الباري تبارك وتعالى من الأولى ، وفي مقام الإقناع وإثبات حقيقة البعث يلفت تعالى الأنظار إلى أن الذي أبدع خلق الإنسان دون أي مثال ولا احتذاء قادر على بعثه بعد موته ، قال تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) ^(٤) وإذا كان ابتداء الإنسان من عدم ثم من نطفة سهلاً على الله تعالى فبعثه بعد موته كما كان أسهل عليه تبارك وتعالى والكل سهل عليه ، كما قال تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ..) ^(٥) وكما قال تعالى (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه

(١) الحج (٦ - ٧)

(٢) المؤمنون (١١٥ - ١١٦)

(٣) المؤمنون (١٣ - ١٧)

(٤) الأنبياء ، ١٠٤

(٥) الروم ٧٢

قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم^(١) ،

فأنت ترى أن هذا قمة في الإقناع فلا يملك بعد ذلك المنصف مريد الحق الذي سلم من آفة الكبر والتعالي إلا الإيمان والتسليم بأن البعث بعد الموت حق لامية فيه

المبحث الثالث:

نماذج مما جاء متدرجاً في المعاملات: التدرج في تحريم الربا:

تمهيد :

شأن الربا كغيره من الأمور التي تأصلت في النفوس تأصلاً عظيماً واقتنع المتعاملون به بأنه ضرورة اجتماعية ملحة لاغني للمجتمع عنها ، فسار الناس في هذا المضمار حتى حل الجشع والطمع محل الشفقة والرحمة ، وتحول المجتمع إلى شبه غاب يأكل القوي فيها الضعيف وحل التواكل والإعتراش محل التوكل ومن هنا جاءت الحلول الشرعية لكبح جماح التعامل بالربا فحثت على التعامل في البيع والشراء الحلال ، ولما سبق من تعلق الناس بهذه الآفة جاءت الآيات متدرجة في تحريم الربا على النحو التالي:-

المرحلة الأولى:

ما جاء في سورة الروم وهي مكية من ذم الربا ومدح الزكاة وذلك قبل فرض الزكاة كما قال تعالى (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله.....)^(٢) قال ابن عطية رحمه الله معنى (فلا يربو) عند الله :- أي فلا يزكو عند الله بل يتعلق فيه الإثم ومحق البركة^(٣) ، وقال ابن كثير رحمه الله معنى " فلا يربو "

(١) يس ٧٧- ٧٩

(٢) الروم (٣٩)

(٣) انظر تفسير ابن عطية عند هذه الآية من سورة الروم

أي فلا يزداد ذلك عند الله ، لأن صاحبه لم يعطه من أعطاه إياه مبتغياً بذلك وجهه الله^(١) ، (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) ، فأنت ترى أن هذا ليس صريحاً في النهي عن الربا وإنما فيه مدح للزكاة وإلماحة إلى عدم محبة الله تعالى للربا ،

المرحلة الثانية :

- وهي في قوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً)^(٢) ، قالوا : فيه بيان أن الله تعالى قد نهاهم عن الربا لكنهم لم يمتثلوا فأخذوه واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه ، قال ابن كثير :، وهذا تلميح بالتحريم لأنه جاء على سبيل الحكاية عن بني إسرائيل وأن الربا كان محرماً عليهم فاحتالوا على أكله فهذا من باب التمهيد لتحريم الربا على المسلمين وفيه إيماء وهو أنه إذا حرم عليكم الربا أيها المسلمون فلا تفعلوا مثل ما فعل أهل الكتاب^{(٣)(٤)}،

المرحلة الثالثة :

وهي في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم ترحمون)^(٥)، قال الطبري رحمه الله تعالى في معنى : (أضعافاً مضاعفة) قال معناه : لاتأكلوا الربا في إسلامكم بعد أن هداكم الله له كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم ، وقد كانوا في الجاهلية يمهلون المدين مقابل بعض الزيادة ، فيقول المدين : نزيدكم وتؤخرون ، أو آخر عني دينك وأزيدك ، وهو ربا الجاهلية كما قاله مجاهد ،

(١) تفسير ابن كثير عند هذه الآية

(٢) النساء ١٦٠ - ١٦١

(٣) انظر تفسير ابن كثير عند هذه الآية

(٤) راجع الفائدة والربا

(٥) آل عمران ١٣٠

فهذا هو المضاعفة المنهي عنها^(١) . ، قلت : وهذا كما ترى مفيد لتحريم الربا إلا أنه لم يكن فيه من التهديد والوعيد ما جاء في آخر مراحل تحريم الربا ،
المرحلة الرابعة:

وفي هذه المرحلة جاء الحكم الشرعي القطعي بتحريم الربا، قال تعالى " الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس"^(٢) ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه

(١) انظر تفسير الطبري عند هذه الآية

(٢) لقد قام الدليل على أن هناك بعض المعاصي يكون لها شؤماً على أصحابها يوم القيامة ، يفتضحون ويخزون بها على رؤوس الخلائق يوم القيامة فيعلو وجوههم فترة وذلة عياداً بالله. ومن ذلك الخيانة ففي الصحيح " ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند إسته فيقال هذ غدره فلان وهذا غدره فلان" الحديث متفق عليه ، البخاري في الجزية والموادعة ح(٢١٨٧) ومسلم في الجهاد ح (١٧٣٧) من ذلك المسألة بغير حاجة ، فإن السائل بغير حاجة يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم كما جاء ذلك في الحديث الذي أخرجه مسلم في الزكاة باب : من سأل الناس تكثرأ ح (١٤٧٤) ، ومن ذلك : عدم العدل بين النساء ، كما في الحديث " من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة ... الحديث أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي وأخرجه الدارمي، قال محقق شرح السنة للبغوي : وإسناده قوي وصححه ابن حبان (١٣٠٧) ، ومن ذلك أيضا أكل الربا ، فمن علامة خزي أكل الربا بين أهل الموقف يوم القيامة ما ذكره الله في هذه الآية (لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ..) الذي عليه عامة المفسرين أن هذه الحال التي وصف الله تعالى بها المرابي إنما تكون له يوم القيامة حين بعثه من قبره يقوم ويسقط بين الخلائق فضحاً له ، ومن المفسرين من قال إنه يجن في ذلك الموقف ، وقد رواه ابن كثير وغيره عن جمع من مفسري السلف ، ومن المفسرين من قال إن سبب تخبطه ثقل بطنه لما ربي فيها من الربا ولكنهم ليسوا مجانبين ، وكل ذلك في الآخرة ، ومن المفسرين من قال إنما هذه الحال إنما تكون في الدنيا ، فقد شبه حال القائم إلى تجارة الربا بحرص وجشع بحال المجنون ، لأن الطمع والرغبة تستفزده حتى تضطرب أضلاعه كما يقال للمسرع في مشيه مخلط في هيئة حركاته أي من فزع أو غيرد : قد جن هذا. كما شبه الأعشى ناقته في نشاطها بالمجنون : وتصبح من غب السرى وكأنها* ألم بها من طائف الجن أولق، وأكثر المفسرين على الأول والله أعلم راجع تفسير الطبري ١١/٦ والمحرر الوجيز ٣٤٥/٢ ، وابن كثير ٣٣٤/١ والبحر المحيط ٧٠٥/٢ والتسهيل لابن جزي ٩٤/١ والرازي ٧٩/٧ وغيرهم،

فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون^(١) يحق الله الربا^(٢) ويربي الصدقات والله لا يحب كل

(١) أعلم أن من استحل الربا ومات على ذلك فقد كفر بذلك فالخلود في حقه على ظاهره خلود سرمدى لانقضاء له وهكذا حال من مات مشركاً كافراً عياداً بالله ، أما من عاد إلى الربا ففعله ولم يكن مستحلاً له ومات على ذلك فقد استحق بفعله ذلك دخول النار دون الخلود فيها ، إذا فمعنى الخلود الوارد في حقه هنا الإقامة دهرًا طويلاً ثم مآله الخروج من النار ، وعليه فليس في هذه الآية وما جاء في معناها من الآيات التي في الوعيد الشديد على بعض المعاصي دليلاً للمعتزلة فيما ذهبوا إليه من القول بتخليد الفساق في النار استدلالاً بهذه الآية وما جاء في معناها كقوله تعالى " ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً " النساء ٩٣ فالذي عليه جمهور السلف والخلف أن هذه الكبيرة الواردة في الآية تسعها التوبة ، وإن هذا الجزاء المذكور إنما هو جزاء الفاعل إن جازاه الله تعالى وقد يغفر له ، أو جزاؤه إن فعل ذلك الذنب مستحلاً له فإنه بذلك قد كفر ، وأن كل نيب دون الشرك فإنه لا يخلد صاحبه في النار ، راجع تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى ٥٥٠/١ وتفسير الشوكاني ١/ ٥٩٠ ، وبعد أن ساق ابن حجر رحمه الله تعالى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ " من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ومن تحصى سماً فقتل نفسه فسمه في يد يتحصد في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بحديدة فحديده بيده يجأ بها بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً " البخاري ح (٥٣٣) قال ابن حجر : وأولى ما حمل عليه هذا الحديث ونحوه من أحاديث الوعيد أن المعنى المذكور جزاء فاعل ذلك إلا أن يتجاوز الله تعالى عنه . (٢) هذا خبر منه تعالى أنه يحق الربا أي يذهب إما بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة كما قال تعالى (قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) المائدة ١٠٠ ، وكما قال تعالى (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم) الأنفال ٣٧ ، قال ابن جرير رحمه الله عند قوله يحق الله الربا : قال وهذا نظير الخبر المروي عن ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه (إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل) أخرجه أحمد في مسنده ٣٩٥/١ وابن ماجه (٩٨٢٢) وقال البوصيري في الزوائد : إسناده صحيح رجاله ثقات ، هذا وقد حكم الله تعالى على كل مال ابتز بالباطل بأنه قليل ولو بدا أنه كثير قال تعالى " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً " البقرة (٧٩) فقد حكم الله تعالى على ما حصلوه بأنه قليل كما قال الحسن البصري رحمه الله : الدنيا بخذا فبرها ثم قليل ، قالوا ووصف ما يحصلون عليه بالباطل بالقلة مع أنه ربما يكون كثيراً لكونه فاتياً لأثواب فيه ، أو لكونه حراماً لاتحل به البركة ، أو لأن مآله إلى انقضاء ،

كفار أثيم) ^(١)، إلى قوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم — لا تظلمون ولا تظلمون) ^(٢)(٣) وهذه الآيات من آخر ما نزل من القرآن الكريم كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وهذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ ، ^(٤)

(١) البقرة ٢٧٥ - ٢٧٩

(٢) انظر فقد رتب على تعاطي الربا من الوعيد ما تقشعر له الأبدان وما هو كاف لبيان شناعته وخبثه عياذا بالله ، نكرا لقرطبي في تفسيره ٣١٢/٢ عن ابن بكير قال جاء رجل إلى مالك بن أنس رحمه الله فقال يا أبا عبد الله : إني رأيت رجلاً سكراناً يتعاقر يريد أن يأخذ القمر فقلت : امرأتي طالق إن كان يدخل جوف ابن آدم أشر من الخمر فقال ارجع فاستمهله ثلاثة أيام ثم قال له : امرأتك طالق إني تصفحت كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فلم أر شيئاً أشر من الربا ، لأن الله أذن فيه بالحرب ، قلت ورغم ذلك فإن تعاطي الناس له في ازدياد ولا حول ولا قوة إلا بالله) ،
(٣) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم كما في فتح الباري ٤ / ٣٦٨ . باب موكل الربا ،
(٤) سبق تخريجه

المبحث الرابع :-

* التدرج في الآداب الاجتماعية ومنها تحريم الخمر :

جاء الإسلام والعرب في جاهلية مطبقة قد تمكن من نفوسهم العديد من العادات التي يصعب التحول عنها دفعة واحدة إلا من خلال السياسة التشريعية المباركة التي مهّرت في ترويض النفوس على التحلي بالفضائل والابتعاد عن الرذائل ، ومن هذه العادات الاجتماعية المتأصلة والمستحكمة في أوساط العرب في الجاهلية عادة شرب الخمر ، فقد ألفها القوم وفتنوا بها وأولعوا بها كل الولع وتردد ذكرها في أشعارهم ومندياتهم ، حتى أصبحت جزءاً من حياتهم فكان من الحكمة الربانية أن تقتلع هذه العادة المتأصلة بالتدرج وعلى مراحل ، إذ لو أنها حرمت في بداية الأمر على سبيل القطع لأدى ذلك إلى انصراف الكثير ممن هم مدمنون عليها عن الدخول في الإسلام أو حتى عن التفكير في الدخول فيه ، وسبق قول عائشة رضي الله عنها " ولو نزل: لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً " إذاً كان من الحكمة الربانية ومن بالغ لطفه تعالى بعباده أن يقتلع هذه العادة على مراحل :

المرحلة الأولى في تحريم الخمر :

بدأ تعالى بالتنفير من الخمر بطريق غير مباشر قال تعالى "ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا " (١) ، فالله تعالى أخبر أنه أنعم على الناس بهاتين الشجرتين النخيل والأعناب يستخرجون منهما السكر أي الخمر الذي يسكر والرزق الحسن الذي ينتفع منه الناس من مأكول ومشروب ، فمدح الرزق ووصفه بالحسن وأخبر عن الأول بأنه سكر وسكت عن وصفه ، فهذه المباشرة في الوصف بينت للعاقل الفطن الفارق بين هذين الأمرين فأحدث ذلك تساؤلاً بين أوساط المسلمين بعد أن نمت الرغبة في الخير في نفوسهم فأعقب ذلك التساؤل بيان أظهر من السابق .

المرحلة الثانية من مراحل تحريم الخمر :

جاء بعد التنفير غير المباشر من الخمر تنفير مباشر من خلال المقارنة العملية بين شيئين شيء فيه نفع مادي ضئيل وشيء فيه ضرر بالغ في الجسم والصحة والعقل وفيه زيادة على ذلك وقوع في المأثم الكبيرة قال تعالى " يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما " (١) فهذه الآية الكريمة نزلت جواباً لسؤال بعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين عن حكم الخمر ، ذلك أن ماتأسس في نفوس المسلمين من الرغبة في الخير دفعتهم إلى الاستفسار عن الكثير من الأمور التي فيها شيء من الضرر ، فقالوا يارسول الله : أفتنا في الخمر فإنها مذهب للعقل مسلبة للمال ، فقد ذكروا أن عمر ومعاذ بن جبل ونفراً من الأنصار رضي الله عنهم جميعاً جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهب للعقل مسلبة للمال فنزلت الآية (٢) وأنت ترى أن الله تعالى أثبت للخمر منفعة لكنها مضمورة ببحر المفساد المترتبة على تعاطيه ، قال ابن كثير : وأما إثمهما فهو في الدين وأما المنافع فدينية لكن هذه المصالح لا توازي المضرة والمفسدة الراجعة لتعلقها بالدين والعقل ، (٣) (٤)

(١) البقرة ٢١٩

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٠٣/١٠٤)

(٣) انظر تفسير ابن كثير ص ١٧٢.

(٤) قلت ورغم أنه قد اشتهر عن العرب في جاهليتهم أنهم كانوا مولعين بالخمر وأشعارهم طافحة في هذا الأمر . لكن في الحقيقة هناك من العرب في جاهليتهم من عافت نفسه الخمر لما فيها من الضرر البين . إذ لاخير يوازي اختلاف العقل هذا في الجاهلية ويضم معه في الإسلام ما هو أشد من ذهاب العقل وهو فساد الدين عياداً بالله ، وقد ذكر القرطبي في تفسيره طائفة من أخبار العرب وكيف أنهم تركوها ومما ذكره : وكان قيس بن عاصم شرباً لها في الجاهلية ثم حرّمها على نفسه لما غمز عكة ابنته وهو سكران وسب أبويه ، ورأى القمر فتكلم بشيء وأعطى الخنار كثيراً من ماله فلما أفاق أخبر بذلك فحرّمها على نفسه وفيها يقول:

رأيت الخمر صالحة وفيها ***** خصال تفسد الرجل الحكيم

وقوله تعالى (وإثمهما أكبر من نفعهما) ، فهذا البيان أكد من خلاله زيادة الإثم وأنه أعظم بكثير من المصلحة الضئيلة التي ربما تحصل للبعض . وقد سبق عند قوله تعالى " فلا يـربو عند الله " ^(١) بيان أن كل مال جاء عن طريق غير مشروعة فإنه قليل مهما كثر ، فهذه المصلحة سبقها بيان عظم الإثم المترتب على تعاطي المسكر ، وعلى أثر ذلك تركها قوم تحرزا من الإثم ، واستمر عليها البعض لأن الآية لا يفهم من خلالها التحريم القطعي ولا يفهم طلب الكف عنها من خلال هذه الآية الكريمة إلا الخبير بسر التشريع ، لأن ما ترجح شره على خيره فهو ممنوع أخذاً بقاعدة " درء المفاسد مقدم على جلب المصالح " ومن استمر على تعاطيها وقف مع ظاهر التخيير الذي لاجزم فيه بالمنع ، ^(٢)

المرحلة الثالثة من مراحل تحريم الخمر :

هذه المرحلة جاء التحريم من خلالها للخمر تحريماً جزئياً ، حيث حرم الله تعالى على المسلمين شربها وقت الصلاة ، فلا بد أن يزول أثرها زوالاً تاماً قبل دخول الصلاة ، قال تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون " ^(٣) فالآية على ما ذكر في كتب أسباب النزول نزلت في علي رضي الله عنه قال : صنع لنا عبد الرحمن طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت منا

= فلا والله أشربها صحيحاً***** ولا أشفي بها أبداً سقيماً

ولا أعطي بها ثمناً حياتي ***** ولا أدعو لها أبداً نديماً

فإن الخمر تفضح شاربها***** وتجنّبهم بها الأمر العظيم

إلى أن قال رحمه الله : ثم إن الشارب يصير ضحكة للعقلاء فيلعب ببوله وعذرتة وربما يمسح به وجهه حتى رني بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول : اللهم أجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ، ورني بعضهم والكلب يلحس وجهه يقول له : أكرمك الله !!! انظر تفسير القرطبي ٢/

٥٢٠٥٣

(١) الروم (٣٩) وسبق بحث المسألة ص

(٢) (انظر تفسير آيات الأحكام) (٢٧٢/١)

(٣) النساء (٤٣) (انظر تفسير آيات الأحكام) (٢٧٢/١)

وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت " قل يا أيها الكافرون " أعبد ماتعبدون ونحن نعبد ماتعبدون ، قال فأنزل الله تعالى " يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى " الآية ^(١)، فبعد نزول هذه الآية ترك بعض الناس الخمر وقالوا لاحاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة ، واستمر البعض في شربها في غير أوقات الصلاة ، لأن التحريم القطعي لم يرد بعد،

المرحلة الرابعة:

وهذه المرحلة شهدت التحريم الكلي القاطع للخمر في كل الأوقات ، فبعد أن هانت الخمر على الناس وكثر من امتنع عن شربها بعد نزول الآيات السابقة صرح بالنهي عن شربها في غزوة بني النضير نهياً جازماً قال تعالى " يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) ^(٢) ، فجاء التحريم قاطعاً كما ترى ، حتى قال بعضهم ماحرم الله شيئاً أشد من الخمر ^(٣) ، وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال بعد نزول الآيات الأولى التي ورد فيها التحريم بشكل غير قاطع قال " اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ..) فدعي فقرنت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادي : ألا لا يقربن الصلاة

(١) انظر منهج التشريع الإسلامي وحكمته ص ٣٦

(٢) المائدة (٩١/٩٠)

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٦

سكران ، فدعي عمر فقرنت عليه فقال اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت " فهل أنتم منتهون " قال عمر " انتهينا " (١) .

** ونلمح من خلال ماتقدم كيف تدرج التشريع مع الناس حتى صرفهم عن هذه العادة السيئة المتأصلة شيئا فشيئا حتى هيأهم لقبول الحكم القاطع بتحريمها بل شوقهم إلى هذا التحريم جامعا بين حسن التخلية وجمال التحلية بإسلوب حكيم.

(١) رواد أبوداؤود (٥٤٤٥/١٦) والترمذي ٤١٦/٨ حديث ٥٠٤٢ وقال حسن صحيح : قال الحافظ في الفتح : صححه علي بن المديني والترمذي ، وكذا قاله ابن كثير في تفسيره : انظر تحفة الأحوذى ٤١٧/٨

المبحث الخامس :

نموذج في التدرج في العبادات : التدرج في شرعية الزكاة :

تمهيد :

إن الله تعالى جبل الإنسان على حب المال والتفاني في تحصيله ، كمال قال تعالى (وتحبون المال حباً) ^(١) وكما قال تعالى " وإنه لحب الخير لشديد " ^(٢) ويقول صلى الله عليه وسلم " يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر " ^(٣) وفي رواية للحديث "قلب الكبير شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال " ^(٤) ، وقال ﷺ حينما سئل : يارسول الله أي الصدقة أعظم أجراً قال أن تنفق وأنت صحيح صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى .. " ^(٥) فهذا الشح الطبيعي الذي جبل الله تعالى عليه الإنسان وهو غلاء المال والحرص على تحصيله لا يعد عيباً ما اتبع المالك السبل التي جاء بها الشارع الحكيم للسلامة من حمئة الشح أو رذيلة البخل ، فقد شرع للمؤمن مابه طهارته ونقاؤه وزكا ماله ، من حمئة هذا الشح والحرص فالله تعالى شرع الإتفاق وحث عليه ورغب فيه كل ذلك لنقاء المال وطهارته وزكائه ، ولصرف حماة الشح والبخل عن المنفق ، ولما كان المال شقيق الروح ، فإن الشارع الحكيم راعى هذه المسألة فشرع الآليات الكفيلة بدفع الناس لإخراج المال طواعية بل ربما اندفع الناس وتسابقوا للبذل بكل سخاوة نفس كل ذلك بعد أن أصبحت الأرضية مناسبة لتقبل إخراج المال وإنفاقه رغم غلائه بيد صاحبه ، وقد كان التدرج بشرعية الزكاة وفق الآتي :-

(١) الفجر ٢٠

(٢) العاديات ٨

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق باب (٥) ح (٦٤٢١)

(٤) رواد الإمام مسلم في الزكاة باب (٣٨) حديث (١٠٤٦/١١٣) كلاهما من حديث قتادة

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة باب ٣١ ح (١٠٣٢/٩٢)

— التنبيه على أن المال مال الله تعالى وأنه بيد الإنسان كالوديعة التي سرعان ماتعود لصاحبها ، قال تعالى في أول وصف للمتقين في كتابه العزيز: (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)^(١) أنظر فقد لفت الأنظار إلى أن الفضل في هبة المال له تعالى والمنة منة (ومما رزقناهم ينفقون) ، كما قال قتادة رحمه الله عند هذه الآية قال : أي فأنفقوا مما أعطاكم الله تعالى هذه الأموال التي هي عواري وودائع عندك يا ابن آدم يوشك أن تفارقها ^(٢) وقال تعالى : (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم..)^(٣) ، قال السعدي رحمه الله: أي فكما أن المال مال الله تعالى وإنما الذي في أيديكم عطية من الله لكم ومحض منة منه فأحسنوا لعباد الله كما أحسن الله إليكم ^(٤)

وقال تعالى (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) ^(٥) قال ابن كثير رحمه الله : فيه إشارة إلى أن المال سيكون مخلوقاً عن هو في يده ، فلعل الوارث أن يطيع الله تعالى فيه ، أي في المال ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليه من مالكه الأول^(٦) ، وقال ﷺ : " إن رجلاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة "^(٧) ، إذا حرى بالعاقل أن لا يورثه المال إذا كثر زهواً وإعجاباً ، بل يجتهد في بذله في وجوه الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، كيف وقد تقرر أنه كالعارية بيده توشك أن تعود إلى من هي له :-

(١) البقرة (٣)

(٢) أنظر في تفسير ابن كثير ص/ ٣٨

(٣) (النور ٢٣)

(٤) أنظر في تفسير السعدي عند هذه الآية

(٥) الحديد (٧)

(٦) أنظر في تفسير ابن كثير ص ١٣٠٨

(٧) أخرجه البخاري من حديث خولة الأنصارية في كتاب فرض الخمس باب (٧) ح (٣١١٨) قال

ابن حجر: أي يتصرفون في مال المسلمين بالباطل.

- التنبيه على أن العطاء لا يزيد المال إلا نماء وبركة ، تارة بمقام الثناء على من وفقه الله تعالى لبذل ماله في وجوه الخير كما قال تعالى : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)^(١) وقال تعالى " وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) إلى أن قال " أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين)^(٢)

- وتارة بلفت الأنظار إلى الخلف الحسن الذي أعده الله للمنفق كما قال تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ..)^(٣) ، قال ابن كثير رحمه الله تعالى : أي مهما أنفقتم من شيء مما أمركم الله تعالى به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل وبالآخرة بالجزاء والثواب^(٤)

والسنة في هذا مؤازرة للقرآن كما في الحديث القدسي "انفق يا ابن آدم أنفق عليك " ^(٥)

— لفت الأنظار إلى محال بمن بطروا النعم وصرفوا الأموال في مالا يحل، وكيف أن الله تعالى عذبهم بتلك الأموال وحرّمهم إياها وأعطاهم لغيرهم ، كما قال تعالى " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنزتم تكنزون)^(٦) وقال تعالى (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما

(١) البقرة (٢٧٤)

(٢) آل عمران (١٣٣/١٣٤)

(٣) سبأ ٣٩

(٤) تفسير ابن كثير ص ١٠٩٧

(٥) البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٦) التوبة (٣٤ ، ٣٥)

يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون^(١) وقال تعالى (كم تركوا من جنات وعيون * وزروع * ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين)^(٢) قال المفسرون : أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد إلى السماء فتبكي على فقدهم ولالهم بقاع في الأرض كانوا يعمرونها بالطاعة ففقدتهم ، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ، أي هم مؤهلون للإهانة والعذاب ، كما في حديث انس مرفوعا : " مامن عبد إلا له في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله . فإذا مات فقداه وبكى عليه " ^(٣) قالوا فلهذا استحقوا أن لا ينظروا وألا يؤخروا^(٤)

- لفت الأنظار إلى حق الفقراء والمساكين وأنه تعالى أعطى هؤلاء ومنع أولئك ليتمتعن عباده، كما قال تعالى " والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم"^(٥) وقال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا)^(٦) - وتارة يلفت الأنظار إلى عقوبة من أغفل حق المسكين والضعيف " ما سلحكم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين ،)^(٧) وقال تعالى " كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضون على طعام المسكين "^(٨) قالوا معناه أي : لا يأمرؤن بالإحسان إلى الفقراء

(١) التوبة (٥٥)

((٢)) (الدخان ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩)

(٣) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده كما أفاده ابن كثير رحمه الله،

(٤) إنظره في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى ص ١٢٠٧

(٥) المعارج ٢٤ - ٢٥

(٦) الإنسان (٨)

(٧) المدثر (٤٣ ، ٤٤)

(٨) الماعون (٣ ، ٢ ، ١)

ويحث بعضهم بعضاً على ذلك^(١) وكما قال تعالى " أرأيت الذي يكذب بالدين * فذلك الذي يدع اليتيم * ولا يحض على طعام المسكين) "^(٢)

أرأيت كيف أن ماسبق عبارة عن مقدمات لتهيئة قبول الإنفاق وإخراج المال ولتكوين الأرضية المناسبة لمجيء الأمر الملزم بالإنفاق وأقيموا الصلاة كما قال تعالى (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) ^(٣) وكما قال تعالى (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً) ^(٤) وكما قال تعالى (وآت ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون) ^(٥) ،

— ثم بعد ذلك جاء التفصيل في القدر المنفق ووقته وجهة الاستحقاق كما قال تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين...) ^(٦) وكما قال تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) ^(٧)

(١) تفسير ابن كثير ص ١٤٣٤

(٢) الفجر ١٧/١٨

(٣) البقرة (٤٣)

(٤) الإسراء (٢٦)

(٥) الروم (٣٨)

(٦) (التوبة) (٦٠)

(٧) (الأنعام) (١٤١)

الخاتمة

- الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وجميع صحبه

وبعد:

فقد يسر الله تعالى إتمام هذه الكلمات اليسيرة التي هي بلا شك جهد مقل وبضاعة مزجاة لكنني مع ذلك مؤمل بأن يبارك الله تعالى بجهد المقل وأن يجبر النقص ، وأن يرزقني بمنه وكرمه الإخلاص وابتغاء وجهه الكريم، فكم من عمل عظيم صار صغيراً حينما تخلفت عنه النية الصادقة وكم من كلمات يسيرة بارك الله تعالى بها لما علم صدق صاحبها ، ..

وفي ختام هذا البحث فإنني توصلت إلى بعض النتائج التي من أبرزها :
- القرآن الكريم معجز بكل ما يحمله هذا اللفظ من معنى فكما أنه معجز بلفظه فهو كذلك معجز بتشريع أحكامه وترويض الناس عليها .

- لا بد من انتهاج السياسة الرشيدة التي جاء بها الإسلام في القضاء على الكثير من المشاكل التي يعاني منها الناس اليوم مثل قضية الربا وقضية الإدمان وقضية الخمر لقد ضرب القرآن الكريم المثل الأعلى في عرض تشريعاته المباركة منتهجاً أفضل سياسة في التأسيس لبناء الحق وهدم الباطل جامعاً بين حسن التخلية وجمال التحلية مراعيًا ما جبلت عليه النفوس من التعلق ببعض محبوباتها ملفتاً إلى ما هو أرفق بالناس نحو الدلالة إلى الأصلح لهم ،،،

- كلما طال الزمن ازداد المنصفون قناعةً بصلاحية هذه الشريعة المباركة لسياسة الناس بالنبي هي أحسن وتوجيههم لما فيه عز الدنيا وصلاح الآخرة بإسلوب سهل عجزت عنه قوانين البشر مهما بذلوا من الجهد والمال والوقت.
- من الأحكام الشرعية مائزلاً ملزماً بدون تدرج لكن ذلك الإلزام قد روعي فيه مدى استعداد المكلف وتهيات نفسه لقبول الحكم .

- من الأحكام ماكان فيه التدرج من الأثقل إلى الأخف وهو الأقل أما الكثير فهو

ما كان فيه التدرج إلى الأثقل

- قضية البعث هي لب الصراع بين الرسل وأقوامهم لذلك كان لها من الاهتمام ما قل أن يكون مثله لغيرها ، ولتقرير هذه القضية سلك القرآن عدة مسالك لتقرير القضايا العقديّة وفي مقدمتها قضية البعث وكل هذه المسالك إنما كانت تنصب تقريباً في مضمار التدرج الذي سار عليه القرآن الكريم للإقناع

- لفت الأنظار إلى الآيات العجيبة التي أظهرها الله تعالى لعباده تقود المنصف إلى الإيمان بالله تعالى وبلقائه وبوعده و وعيده وقد ظهر من هذه الايات مايكفي لمريد الحق ، أما المعاند فلا يزداد بظهور الآيات إلا بعداً ،

- من أشد مايدفع الناس إلى قبول الحق والتخلي عن الباطل بناء الإيمان في قلوبهم ولفت أنظارهم إلى عظيم ماله تعالى عليهم من الفضل والإحسان حين ذلك تتطلع نفوسهم لمعرفة الحق لقبوله وترك الباطل ،كما في قصة مراحل تحريم الخمر ،

- من المعاصي مالها شؤم على أصحابها يخزون بها على رؤوس الأشهاد يوم القيام كأكل الربا ،

- كل مال تحصل عليه وابتز من طريق محرم فهو قليل مهما كثر بيد صاحبه لنزع البركة منه ولما يترتب عليه من الإثم ولعدم القناعة به ،

- لاعتبرة بمصلحة عاجله يترتب - عليها ضرر في الدين والعقل والإثم في الآخرة ، -

لابد من انتهاج السياسة الرشيدة التي جاء بها الإسلام في القضاء على الكثير من المشاكل التي يعاني منها الناس اليوم مثل قضية الربا وقضية الإدمان وقضية الخمر وكذلك مع من أشربوا البدع وألفوها ونافحوا عنها وروجوها على الناس باسم الدين في كل هذه الحالات لابد من شيء من التدرج والإقناع بغية التمهيد للحق ومن ثم إقناع الناس بقبوله والتخلي عن ضده - يمكن أن يستفاد من موضوع التدرج في

تشريع الأحكام مع المدعويين للدخول في الإسلام فيبدأ معهم أولاً في الترغيب ليألفوا الدين ثم بعد ذلك يؤمرون بالأمور الشاقة شيئاً فشيئاً،

وبعد: فهذا مايسره الله تعالى في هذا البحث فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان ، (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) ،

الفهارس العامة

١ / فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	الصفحة
النساء	(الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم) (٣)	٢٠٧٤
	(فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا.....) (٢٤)	٢٠٥٨
	(أحل لكم ليلة الصيام الرفث..) (١٧٨)	٢٠٤٩
	(الذي جعل لكم الأرض فراشاً..) (٢٢)	٢٠٥٧
	(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً) (٢٨)	٢٠٦١
	(إن في خلق السموات والأرض) (١٦٤)	٢٠٥٥
	(والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً..)(٢٤٠)	٢٠٥٠
	(الذين يأكلون الربا لا يقومون)(٢٧٥)	٢٠٦٥
آل عمران	(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا...)(١٣٠)	٢٠٦٤
	(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ..)(١٣٢)	٢٠٧٥
النساء	(ولا تنحكوا مانح آبائكم...)(٢٢)	٢٠٤٨
	(يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا..)(٤٣)	٢٠٧٠
	(فبظلم من الذين هادوا..)(١٦٠)	٢٠٦٤
المائدة	(يا أيها آمنوا إنما الخمر ..)(٩٠)	٢٠٧١
الأنعام	(الحمد لله الذي خلق ..) (١)	٢٠٦١
	(ألم يروا كم أهلكنا قبلهم..)(٦)	٢٠٧٥

٢٠٥٨	(قل سيروا في الأرض..)(١١)	
٢٠٦١	(قل أغير الله أتخذ ولياً..)(١٤)	
٢٠٥٩	(ويوم نحشرهم جميعاً..)(٢٢)	
٢٠٧٧	(وآتوا حقه يوم حصاده ..)(١٤١)	
٢٠٤٧	(والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم..)(١٨٢)	الأعراف
٢٠٧٥	(والذين يكنزون الذهب والفضة..)(٣٤) (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم..)(٥٥)	التوبة
٢٠٧٧	(إنما الصدقات للفقراء..)(٦٠)	
٢٠٦٠	(وما كان هذا القرآن أن يفترى..)(٣٧)	يونس
٢٠٥٦	(الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ..)(٣/٢)	الرعد
٢٠٥٧	(الله الذي خلق السموات والأرض ..)(٣٤/٣٣/٣٢)	إبراهيم
٢٠٥٩	(أفمن يخلق كمن لا يخلق...)	
٢٠٦٨	(ومن ثمرات النخيل والأعناب ..)(٦٧)	النحل
٢٠٦١	(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم..)(٧٨)	
٢٠٦٠	(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى..)(٩٧)	
٢٠٤٨	(ولا تقرّبوا الزنا إنه كان فاحشة ..)(٣٤)	الإسراء
٢٠٥١	(وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ..)(١٠٦)	
٢٠٥٩	(إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم..)(٩٨)	الأنبياء
٢٠٦٢	(كما بدأنا أو خلق نعيده)(١٠٤)	
٢٠٦٢	(ذلك بأن الله هو الحق ..)(٧/٦)	الحج
٢٠٦٢	(ولقد خلقنا الأنسان من سلالة من طين ..)(١٧/١٣)	المؤمنون
٢٠٦٢	(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ..)(١١٦/١١٥)	

٢٠٧٤	(وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ...)	النور
٢٠٥١	(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ..) (٣٣/٣٢)	الفرقان
٢٠٥١	(نزل به الروح الأمين) (١٩٣/١٩٤/١٩٥)	الشعراء
٢٠٥٨	(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ..) (٤٨)	العنكبوت
٢٠٧٧	(فَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا ————— ه ..) (٣٨)	الروم
٢٠٦٣	(وما آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا ..) (٣٩)	
٢٠٦٢	(وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ..) (٧٢)	
٢٠٧٥	(وما أنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ ..) (٣٩)	سبأ
٢٠٦٢	(أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ ..) (٧٧/٧٩)	يس
٢٠٦١	(أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ..) (٨١)	
٢٠٥٠	(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ..) (٣)	الدخان
٢٠٧٦	(كم تركوا من جنات وعيون)	
٢٠٤٧	(ثم جعلناك على شريعة من الأمر ..)(١٨)	الجاثية
٢٠٥٧	(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ..) (٣٨)	محمد
٢٠٥٨	(وما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ...)(٣٤)	النجم
٢٠٧٤	(وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ..) (٧)	الحديد
٢٠٦١	(خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ..) (٣)	
٢٠٥٨	(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ) (٤٤)	الحاقة
٢٠٧٦	(والذين في أموالهم حق معلوم ..) (٢٤/٢٥)	المعارج
٢٠٧٦	(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ..) (٤٣)	المدثر
٢٠٧٦	(وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ..) (٨)	الإنسان
٢٠٧٣	(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ..) (٢٠) / ٣٢	الفجر
٢٠٧٧	(كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ) (١٧/١٨)	

٢٠٦١	(لقد خلقنا الإنسان) (٤)	التين
٢٠٥٠	(إنا أنزلناه في ليلة القدر) (١)	القدر
٢٠٧٣	(وإنه لحب الخير لشديد)	العاديات

٢ / فهرس الأحاديث والآثار

٢٠٦٩	أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل
٢٠٧١	الله بين لنا في الخمر بيانا شافيا (أثر عن عمر)
٢٠٨٥	إن الربا وإن كثر
٢٠٧٤	إن رجالا يتخوضون في مال الله
٢٠٧٤	أنفقوا مما أعطاكم الله (أثر عن قتادة)
٢٠٧٥	أنفق يا ابن آدم ينفق عليك
٢٠٤٨	إنما نزل أو ما نزل من القرآن سورة من المفصل (أثر عن عائشة)
٢٠٦٦	الدنيا بحذافيرها ثمن قليل (أثر عن الحسن البصري)
٢٠٧٣	قلب الكبير شاب
٢٠٦٦	من تردى من جبل
٢٠٧٦	ما من عبد إلا له في السماء
٢٠٧٣	يا رسول الله : أي الصدقة أعظم
٢٠٧٣	يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان

٣ فهرس المصادر والمراجع:

- * القرآن الكريم
- ° أسباب النزول للواحدی
- * البحر المحيط لأبي حيان
- ° تحفة الأحوذی شرح سنن الترمذی
- ° التسهيل لابن جزي الكلبي
- * التشريع الإسلامي وحكمته / محمد الأمين الشنقيطي
- * تفسير القرآن العظيم لابن كثير
- * تفسير سورة الأنعام لمحمد سيد طنطاوي .
- * تفسير آيات الأحكام
- * تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي
- * الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ،
- * جامع البيان للإمام الطبري
- * الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي .
- ° روح المعاني للآلوسي ،
- ° سنن ابن ماجه
- ° سنن أبي داود
- * شرح السنة للبغوي
- ° صحيح مسلم بشرح
- * فتح الباري شرح صحيح البخاري
- * فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير للشوكاني
- * فتوح الغيب في الكشف عن قناع الغيب، رسالة ماجستير للباحث
- * لسان العرب لابن منظور
- * الكليات للكفوي

* المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي

* مختار الصحاح لأبي بكر عبد القادر الرازي.

* المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبه

* مسند الإمام أحمد بن حنبل

* مسند الدارمي

* المعجم الوسيط

* مناهل العرفان للزرقاني

